في مجاري حضارة جديدة مدهشة هي تلك الحضارة التي تدعوها الآن عصر العرب الذهبي . وما هي لدى التحقيق الاّ حالة طبيعية نتجت عن احتكاك الروح الآرية اليونانية المفكرة بالروح السامية الحساسة — او امتزاج العقل المبدع بالعقل المثل الذي يمتصّ المبادىء ويخزنها ويخرج منها بمدنية آيت من الحكمة والمعرفة

ومع كل عناية العرب بعلوم الاقدمين وفلسفتهم لا نراهم اهتموا بشيء من شعرهم ولا غرابة في ذلك فان تعريب الشعر اصعب من تعريب العلوم ولاسيما على معرّبين هم من طبقة العلماء والاطباء اضف الى ذلك ان الشعر اليوناني وسواهُ من اشعار الامم الخالية منبثق من خرافات الالهة واساطير الابطال وفي ذلك ما فيهِ مما يناقض المبدأ الاسلامي ويحول دون الاهتمام بتعريبهِ

ولذلك بقي الشعر العربي غنائيًّا منحصراً في اساليب لم يتعدّاها ولم يحاول احد التفنن في اوزانهِ الاّ اهل الاندلس الذين ادخلوا فن التوشيح والترصيع والزجل على انهم لم يخرجوا في ذلك عن النوع الغنائي المذكور ولم يحفل شاعر عربي شرقي او اندلسي ان ينظم ملحمة او سلسلة من النوع الفروسي او الروائي كما نرى لشعراء اليونان وغيرهم من الامم الغربية او كما نرى لشاعر ايران الفردوسي الذي نظم الشاهنامه ليثبت مفاخر قومهِ ويذكر امجادهم بل اكثر شعراء العرب بنظم القصيدة التي تضرب على اوتار العواطف الهائجة وفي ذلك بلغوا غاية بعيدة من الاتقان والجمال

ولو تصفحنا تاريخ الادب في اية امة راقية لوجدنا للشعر الفروسي عندهم منزلة كبرى فكم وكم عندهم من ملاحم رنانة نظمت تشييداً لذكرى ابطالهم او احياء لتاريخ قوميتهم مما يملأ النفس بعواطف الجلال والوقار ويدفع الانسان الى الاقتداء باولئك الابطال . ولا يراد بذلك فارغ المدح الذي اندفع فيهِ كثير من شعرنا بل تصوير الحياة الكبيرة بصور تجذب النفس وتحرك الوجدان وتولد في الرجال طلب المعالي وحبّ الاقدام . والذي يجعل هذا السبيل واسعاً لدى الشعر العربي ان ابطال التاريخ العربي كثيرون يكفيك منهم رجال الفتوح الاسلامية دع عنك غيرهم من رجال التاريخ الاسلامي رجال كان يقتضي ان يقوم في العصر العباسي من يتخذهم مواضيع للملاحم تهزّ النفوس وتفعل في القلوب فعل الحميا في الرؤوس

قلت انهم اجادوا في الشعر الغنائي وبلغوا فيهِ ابعد غاية . نعم يؤخذ عليهم

مبالغاتهم في مديح الامراء واطنابهم الى درجة الغلو الممقوت الذي لا يزال يتمسك به الى اليوم نفر من شعرائنا . ومع ذلك فقد البسوا شعرهم مطارف جديدة من الخيال تخلب الالباب وتفعل في النفوس . ولشعر هذا العصر ميزة على ما سبقهُ في ان قسماً كبيراً منهُ انصرف الى النظر في الوجود والتفكر في الحياة واكثر ما يظهر ذلك في الاوجه التالية : —

﴿ نبذ الحاضرة والاهتمام بالآخرة ﴾ وهي فكرة قديمة تراها في اشعار القدماء ولكنها لم تبلغ في عصر من العصور ما بلغتهُ من الاتساع والتعمق في هذا العصر وامام هذه الطريقة ابو العتاهية . فانهُ صوّر لنا الحياة الدنيا بصور تشعر بحقارتها وسرعة زوالها ووجّه الانظار الى الحياة الباقية — حياة الخلود . وسواء فعل ذلك زهداً في الدنيا بعد قنوطهِ من الحصول على فتاتها او لدافع داخلي عميق في نفسهِ فان الحقيقة التي لا ريب فيها انّ في شعر الرجل مجرًى فكرياً لطيفاً يرفع النفس عن ترهّات الملذّات الدنيوية الى السعادة العلوية ويهيج فيها عواطف التقى والزهد والقناعة . ولم يكن ابو العتاهية متشائماً صرفاً كما يفهم من فلسفة التشاؤم التي يسميها الغربيون Pessimism بل كان ورعاً مهتماً بما وراء الدنيا نابذاً ما سواه . فهو قانع بالله ناظر الى الله منصرف الى الله . وما الدنيا في نظرهِ الاّ دار فناء او ممر وقتي لما هو اهم وابقى

﴿ فساد الحياة والوجود ﴾ وهو مبدأ يختلف عن البدإ الاول في انهُ يهدم ولا يبني . يقبّح لنا الوجود دون ان يشوّقنا الى الخلود . وامام اصحابهِ ابو العلاء المعرّي الذي كان ينظر الى الوجود نظرهُ الى حالة شرّ وضع الانسان فيها فيجب عليهِ التخلص منها باسرع ما يكون

فبينما نرى ابا العتاهية شديد الاعتقاد بالآخرة ثابت اليقين في يوم الحساب نرى ابا العلاء كثير الشكوك مزعزع اليقين يغشى التشاؤم كل فكر من افكاره . ولا شك ان المعرّي دقيق الفكر حادّ النظر العقلي وهو يفوق ابا العتاهية في ذلك ولكنهُ كان هداماً وكأنما شعرهُ السيل العرم الطاغي على ما حولهُ من مظاهر الحياة . فلا الدين ولا الرآسة ولا الزواج ولا شيء من اعمال الناس يستحق عندهُ ان يكترث لهُ او يحيا لاجلهِ . ولم تكن الآخرة في نظرهِ تلك الصورة الحسيّة التي كان يصوّرها ابو العتاهية وزملاؤهُ بل كانت لديهِ اشبه بسراب لا تدرك حقيقتهُ من بعيد

ويمتاز ابو العلاء بصراحته الشديدة وحملاته الشعواء على النظامات البشرية — فأس حادّة بيده يدور بها على اشجار المجتمع لا لنزع الفاسد منها فقط بل ليقطع الشجرة نفسها احياناً وينزع الحياة منها . هذه هي فلسفة التشاؤم التي تسرّبت الى الشعر العربي وظهرت باكبر مظاهرها في حياة شاعر المعرّة

على ان ذلك لا يجعلهُ في جماعة المارقين من الدين . فان زهدهُ الحقيقي وورعهُ الصادق واخلاصهُ العميق ادلّ الدلائل على نفسهِ الطيبة الملتهبة بنار الفكر والتأمل . وما مرارة نفسهِ او شكوكهُ الاّ المرارة العقلية التي يشعر بها ذوو العقول المفكرة والتي تسيل على ألسنتهم واقلامهم وتظهر في افكارهم واقوالهم فتصوّر لهم كل شيء في الوجود باطلاً لا خير فيهِ

﴿ الفناء الروحاني ﴾ وهو مذهب المتصوّفين ويمتاز بهِ شعر الفارض امام شعراء الحب الالهي

ولا شك ان هذا المبدأ كسواهُ من المبادىء الفلسفية نتيجة احتكاك الافكار في العصر العباسي . والظاهر ان هذه الفكرة دخلت الى الشعر العربي من الهند وفارس وهي تختلف عما سبقها في انها لا تنظر الى النفس البشرية كوجود قائم بذاتهِ بل كنقطة من بحر عظيم وان غاية الوجود ان ترجع هذه النقطة الى البحر الالهي وتفنى فيهِ . وليس الغرض هنا شرح هذا المبدأ الروحاني ووصف اركانهِ الاساسية التي يرتكز عليها وذكر علاقتهِ بالفناء الروحاني عند الهنود وسواهم من اهل هذا المبدأ انما الغرض ان نوجّه النظر اليهِ كمظهر من مظاهر الشعر في العصر العباسي

وقد بقي للشعر المولّد خصائص اخرى ولكنهُ لا ينفرد بها . من ذلك ما ولّدهُ رخاء الحضارة الاسلامية من وصف مجالس الطرب والصيد والقصور وما اليهِ من مظاهر النعيم والترف في عصر كثرت فيهِ الاموال والعبيد والقيان واسباب اللهو والحبور . وهذا الشعر الوصفي يجري في مجريين ظاهرين —

(١) وصف المشاهد الجميلة والمقدّمون في ذلك عدد ليس بقليل منهم البحتري الذي سمّي شعرهُ بسلاسل الذهب لرونقهِ في الوصف وجمالهِ في التعبير ومنهم صفي الدين الحلي وسواهُ ممن ملكوا ناصية الوصف واجادوا فيهِ ما شاؤوا

(٢) ووصف مجالس اللهو والطرب وامام هذه الطريقة ابو نواس صاحب

الخمريات المشهورة وخلف لغتهُ جملة كبيرة من الشعراء الذين لولا مجونهم وسخافاتهم وخروجهم عن جادة الادب واللياقة في كثير من كلامهم لكان شعرهم الزلال الصافي او الخمر الممتقة التي تسكر النفوس وتهيج العواطف

وهنالك طائفة من الشعراء المولدين انصرفت الى الحكم والامثال وقد فاق الشعر الحكمي في هذا العصر سواهُ ومن يقرأ القصائد الحكمية المشهورة والاراجيز الجامعة يدرك الدرجة العالية التي وصلوا اليها في هذا الباب . ولا شك ان كبير الحكيين ابو الطيب المتنبي فقد قرن في شعره اختبارات الحياة التي كان يمثلها عصره بنفس مدركة عملية فعوضاً عن ان ينصرف الى كره الدنيا وكبح النفس ومشتهياتها لاجل سعادة الآخرة صوّر لنا الحياة من وجهتها العملية وشرح لنا عواطف الانسان وطبيعتهُ بقلم دقيق فيينا تراهُ بين الابطال يثير غبار الهيجاء او في مجالس الملوك يغالي بالاطراء او على قبر حبيب تسيل نفسهُ بالبكاء تراهُ ينثر دررهُ الغوالي امثالاً يهتدي بها الحكيم ويرمي باختباراته عظات ينتفع بها الفهيم . ان الشعر العربي في كل اطواره مولع بالحكم والعظات مفرم بالنصح والانذار ولكنهُ لم يبلغ في طور ما بلغهُ في شعر المتنبي من معانٍ سامية تلبس ثوب العظة فتدخل الى القلوب وتستأسر النفوس ويشعر معها القارىء بهزة طرب لا يشعر بها حتى بين الحسان والكؤوس

هذه الروح الفكرية العملية التي يمثلها المتنبي ونظراؤهُ يمتاز بها العصر العباسي اولاً لبلوغ الدولة فيهِ نضجها الاجتماعي وثانياً لانتشار المبادىء العلمية كما مرّ معنا

والخلاصة ان الشعر القديم والشعر المولّد مع اشتراكهما في اكثر صور الحياة الشعرية ينفرد كلٌّ منهما بخصائص او بخاصة تدل على حالة العرب الاجتماعية يومئذٍ فالاول شعر العواطف البدوية او ديوان الروح العربية والثاني شعر الحياة المتحضرة او مظهر الامتزاج الاخلاقي في ابّان عمران الدولة

﴿ الشعر الاندلسي ﴾ وهنا لا بدّ من كلمة في الشعر الاندلسي فانهُ وان كان من الشعر المولّد وعليهِ يصدق اكثر ما ذكرناهُ عنهُ يمتاز باشياء لا يسعنا الاّ ان نذكرها على سبيل الاجمال

من ذلك رقتهُ التي تظهر في وصف الرياض والجنائن والمياه او شرح العواطف

والانفعالات . فاهل الاندلس على رأي جمهور الكتبة موصوفون بذلك وشعرهم شاهد على ما انطوت عليه نفوسهم. ولرقتهم وانصرافهم الى جمال الطبيعة بين المياه والظلال وصفوا اشعرهم اوزاناً خاصة اهمها الموشح. والناقد البصير يرى في ذلك صورة فكرية لمشاهد الرياض التي اولعوا بالقيام فيها فارجلهم او توشيحهم وترصيعهم الا صدى العواطف السائلة مع مجاري الانهار او المترنحة تحت ظلال الاشجار . ولولا ضيق المقام لاتيت بشيء من شعرهم الجديد اثباتاً لما اقصد اليه . وما التفنن في الاوزان لدى التحقيق الا تفنن في العواطف تبعاً لمقتضيات خاصة ولذلك نرى اهل هذا العصر قد اخذوا يتبارون في ابتكار الاوزان والمقاطيع من مرصّع وموشّح ومسمّط وغير ذلك عملاً بسنّة طبيعية لا تستطيع الشرائع التقليدية ان تقف في سبيلها. ولو قيل لماذا انفرد الشعر الاندلسي بهذا التفنن دون سواهُ من الشعر المولّد اجبت لذلك أسباب كثيرة يطول بنا شرحها الآن اهمها — طبيعة البلاد وطبيعة الناس والاحوال العمرانية الخاصة

انيس الخوري المقدسي

مستقبل العلم والعالم

حديث لماركوني

نشرت مجلة ناش الانكليزية حديثاً للسنيور ماركوني مخترع التلغراف اللاسلكي قال فيهِ ما خلاصتهُ :

ان العلم الطبيعي سيغير احوال الانسان في الخمسين سنة المقبلة حتى لنهش اذا بُعثنا من قبورنا فرأينا ما تكون عليهِ احوال المعيشة في العقد السابع من القرن العشرين بما يجدّ من المكتشفات والمخترعات . ولكن هذا لا يعني انهُ علينا ان ننتظر خمسين سنة حتى يتم ذلك لان المخترعات والمكتشفات لا تظهر دفعة واحدة والمخترعون سائرون بعملهم سيراً حثيثاً والسرعة التي ظهرت بها المخترعات المهمة في هذا العصر لم يسبق لها مثيل . فالتلغون اللاسلكي ابن الامس ومن يعلم ما يجيء بهِ الغد . قد يتمكن العلماء غداً من تحليل الجوهر الفرد واستعمال القوة المذخورة في كهاربهِ وهي تفوق كل قوة استعملناها حتى الآن